أسلوب القرآن فى المحاجة والجدل

وخطابة أرسطو

بقـــلم عبد الوهاب حموده

المدرس بكلية الحقوق بالجامعة المصرية

سنبحث فى موضوعنا هذا أساليب القرآن فى محاجة خصومه ، ومنهجه فى مجادلة معارضيه ، ثم نطبق هذه الأساليب وتلك المناهج على قواعد الخطابة التى دوّنها أرسطو [1]

ولا ندرى فيما نعلم أن باحثا من القدماء أو المحدثين اتجه فى بحثه هذه الوجهة التى ننتهجها فى دراستنا للقرآن الكريم . فالقدماء لهم مايشبه هذا الغرض بعض الشبه . فأول من وضع الرسائل فى أدلة القرآن والنظر فى حججه هو حجة الاسلام الغزالى . له رسالة صغيرة تسمى (القسطاس المستقيم) بحث فيها الأدلة القرآنية المختلفة . وقسمها موازين ، الميزان الأكبر ، والميزان الأوسط ، ثم الميزان الأصغر وأخذ يدرج كل نوع من الأدلة تحت ميزانه . ولكنه لم ينظر إلى تلك الحجج بمنظار الخطابة ولم يقسها بمقاييسها .

وكذلك صنع ابن رشد فقد ألف ما سماه (الكشف عن مناهج الأدلة فى عقائد الملة) سلك فيه مسلك المتكلمين وجعل كل براهين القرآن داخلة تحت صنفين سمى الصنف الأول « دليل العناية » والصنف

(١) وترجمها اسحاق بن حنين المتوفى سنة (٢٩٨ هـ) كما فى ص (٣٤٩) من الفهرست وكذا فى ص (١١) مقدمة النثر الفنى للدكتور طه باللغة الفرنسية وقد ذكرت خطأ فى الترجمة العربية ص (١٤) — حنين بن اسحاق .

الثانى « دليل الاختراع » ثم جعل كل همه مناقشته الأشعرية وغيرهم. وهى أيضا رسالة قيمة وبحث فلسفى طريف.

وللامام أبى الفضل احمد بن محمد الرازى من أعيان القرن السابع كتيّب جليل القدر عظيم الخطر سماه (حجج القرآن لجميع أهل الملل والأديان) استخرج فيه من القرآن كما قال «حجج كل طائفة على اختلاف نحلهم وآرائهم وافتراق مللهم وأهوائهم » فأخذ يسرد حجج كل فريق من القرآن كحجج أهل التوحيد وحجج الجبرية وحجج القدرية وحجج المرجئة وهكذا وهو نوع من البحث له مكانته وتقديره.

أما الجلال السيوطى فهو على طول باعه وشمول تأليفه لم يستوف هذا الموضوع فى كتابه (الاتقان) بل ألم به إلماما وقاربه مقاربة . ونظن نحن أن السبب فى ذلك هو كرهه للمنطق فقد نقل عنه أن قال « وقد كنت فى مبادىء الطالب قرأت شيئا فى علم المنطق ثم ألقى الله كراهته فى قلبى » . ذكر فى الجزء الثانى من كتابه السابق بابا عنونه بعنوان « فى جدل القرآن » نقل فيه أموراً يسيرة فى علم الجدل وانواعا من الأقيسة التى وردت فى أسلوب استدلال القرآن ولكنه لم يبين فى هذا الفصل ما ينطبق من تلك الحجج على الأدلة الخطابية .

هذا ما كان من شأن المتقدمين . أما المتأخرون فلم أظفر لهم إلا بكتاب واحد للسيد جمال الدين القاسمى ألفه فى سنة (١٣٢٥ هـ) سماه (دلائل التوحيد) جمع فيه من أدلة الكلاميين مارد به على الماديين والفلاسفة الالهيين مجوداً فى أسلوبه مجددا فى ترتيبه مورداً فيه زبدة ماطالعه فى كتب أساطين المتقدمين من الفلاسفة والمتكلمين كابن مسكويه والفارابى وابن رشد والغزالى وابن حزم وابن تيمية وابن القيم مقتبسا من آراء المتأخرين كالأستاذ الامام الشيخ محمد عبده . إلا أن كل ذلك لا يغنى عن

بحثنا أو يسد مسد موضوعنا وبعد فهل فى أدلة القرآن مايتطابق مع أدلة الخطابة ومقاييسها التى عرفها أرسطو وحاكاه فيها المناطقة ؟

إن مما لاريب فيه أن أسلوب القرآن الكريم فى المجادلة والمحاجة أسلوب مقنع بالفطرة لوضوحه وجلائه . فقد نقل السيوطى فى كتابه (الاتقان) « إن القرآن العظيم قد اشتمل على جميع أنواع البراهين والأدلة . وما من برهان ودلالة إلا وكتاب الله قد نطق به لكن أورده على عادات العرب دون دقائق طرق المتكلمين . لأن الذى يميل إلى دقيق المحاجة هو العاجز عن إقامة الحجة بالجليل من الكلام ، فإن من استطاع أن يفهم بالأوضح الذى يفهمه الأكثرون لم ينحط إلى الأغمض الذى لا يعرفه إلا الأقلون ، فأخرج تعالى مخاطباته فى محاجة خلقه فى أجلى صورة ليفهم العامة من جليها ما يقنعهم ويلزمهم الحجة وتفهم الخواص من أنبائها ما يربى على ما أدركه فهم الخطباء »

وذكر الفخر الرازى عند تفسيره لقوله تعالى « يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون » أنّ : « الادلة المذكورة فى القرآن يجب أن تكون أبعدها عن الدقة وأقربها الى الافهام لينتفع به كل أحد من الخواص والعوام اذ ليس الغرض من الأدلة القرآنية المجادلة بل الغرض منها تحصيل العقائد الحقة فى القلوب »

فأصبح من اليسير اذن أن نرى فى القرآن أدلة اقناعية سهلة قريبة الفهم فطرية الادراك وهذا النوع من الفهم والضرب من الادراك تؤديه الأدلة الخطابية اذ تعريف الخطابة عند ارسطو «انها صناعة تتكلف الاقناع الممكن فى كل مقولة من المقولات » وهى أيضا عند المناطقة القياس المركب من المشهورات فى الظاهر والمقبولات والمظنونات والفائدة من ذلك اقناع الجمهور فيما يحق عليهم ان يصدقوا به من الأمور السياسية

والمصلحية والوظائف الشرعية وغير ذلك — (ص١٤٦ البصائر النصيرية)

هذا الى أن القرآن مملوء بالاسلوب الخطابى مفعم بخصائص هذا النوع ومميزاته . والآن نرى من الملائم ان نذكر تلك الخصائص والمميزات فنقول :

يمتاز الاسلوب الخطابى بالتكرار وضرب الامثال والاطناب والجمل الاعتراضية واستخدام المترادفات من المفردات والجمل . ويمتاز أيضاً بالتوكيد ثم بالتهويل والتفخيم واختيار الكلمات الجزلة الصقيلة ذات الرنين والجلبة فى بعض المواطن . والكلمات الرقيقة اللينة العذبة فى البعض الآخر . ويمتاز أيضا بتعاقب ضروب التعبير من إخبار الى استفهام الى تعجب الى استنكار ، وبمخاطبة الشعور والوجدان واثارة الإحساس والانفعال

فاذا قرأنا القرآن بامعان وتدبر شاهدنا تلك الخصائص شائعة فيه تكتنف جوانبه من أوله الى آخره وسنرى ذلك عندما نعرض لتحليل ادلته وبراهينه .

بعد هذه المقدمة نبدأ بحثنا بالكلام على الاديان التى كانت فى جزيرة العرب عند بزوغ شمس الاسلام والتى جادلها القرآن وجادلته فأدحض من حجتها وزيف من اعتراضاتها .

جاء الاسلام وبجزيرة العرب عدة من الديانات وجملة من النحل . ذكر القرآن بعضها تفصيلا والبعض اجمالا . تلك النحل هى الصابئة والمجوس واليهود والنصارى والمشركون على اختلاف مناحيهم وتعدد آلهتهم.

وقد جعلنا بداءة كلامنا الحديث عن الصابئة ، تلك الفرقة التى لا تزال مجهولة الأصل مبهمة التحديد والتعريف .

إن هذه الطائفة قد ذكرت فى القرآن فى ثلاثة مواضع :

الموضع الأول فى سورة البقرة (الآية ٦٢)

والموضع الثانى فى سورة المائدة (الآية ٦٩)

والموضع الثالث فى سورة الحج (الآية ١٧)

وقد اختلف اللغويون والمفسرون فى تحديد مبادىء هذه الطائفة اختلافا كبيرا . وسنجمل آراءهم ثم نذكر الرأى الراجح مستنبطا من غضون ما قاله المؤلفون من كتاب العرب وما ذكره المستشرقون من الغربيين .

افترق المؤلفون من العرب ازاء هذه الطائفة فرقا : فبعضهم يقول انها من أهل الكتاب ويقصدون بذلك ان لهم كتابا يعزونه إلى شيث ويسمونه صحف شيث .

(ص ٣٧٠ ح ١ القرطبى - ٨٢ ح ١ ابو الفداء - الصحاح للجوهرى)

وبعضهم يقول إنهم عبدة الكواكب

(ص ٦ ح ٤ الفصل لابن حزم - ص ١١٧ ح ٢ الملل والنحل للشهرستانى - ص ٣٣١ ح ١ الفخر الرازى - ص ٨ رسالة الصابئة للسيد عبد الرزاق الحسنى - المصباح المنير للفيومى - دائرة المعارف لفريدوجدى) ويقول البعض الآخر انهم عبدة الملائكة والروحانيات

(ص ١٧٩ ح ٦ الألوسى - ص ٥٨ ح ١ الكشاف - ص ١١٧ ح ١٧ تفسير الألوسى - ص ٤٦٣ ح ٢ الفخر الرازى)

ويرى البعض أنهم من اليهود والنصارى ، وفريق أنهم من اليهود والمجوس . وفريق أنهم بين اليهود والنصارى ، وفريق أنهم يؤمنون بنبى ويقرون بكتاب ويعظمون الكواكب تعظيم المسلمين للكعبة .

(ص ٨٨٧ كشاف - اصطلاحات الفنون للتهانوى - المصباح للفيومى -

ص٥٤٩ حـ ١ الفخر الرازى - ص٢٢٠ حـ ٦ الفخر الرازى ص٢٠٤
أخبار الحكماء للقفطى - ص ١٢٨ الأحكام السلطانية للماوردى)

على ان هذا الخلط والاضطراب قد وقع فيه بعض المستشرقين أيضا مثل (سيل) فى مقدمته لترجمته للقرآن الكريم ومثل (كلير) فى كتابه (المصادر الأصلية للقرآن)

والرأى الذى نميل اليه هو ما ارتأته دائرة المعارف الاسلامية وما ارتآه أيضا (رود ويل) عند شرحه لآية البقرة فى ترجمته للقرآن .

تقول الدائرة فى المجلد الأول عند كلمة صابئة :

ان هذا الاسم يطلق على طائفتين منفصلتين : الطائفة الأولى هم المندائيون وهؤلاء مذهبهم مزيج من اليهودية والنصرانية يقومون بشعائرهم على مذهب القديس يوحنا المعمدان [1] فى بلاد الجزيرة .

والفرقة الثانية هى الصابئة الحرانية ومذهبهم وثنى وهو الذى ظل باقياً إلى العصور الاسلامية .

أما الصابئة الذين ذكرهم القرآن تحت لقب أهل الكتاب فهى الطائفة الأولى . واسم الصابئة مشتق من أصل عبرى بهذا النطق مع ترك

---

(١) يوحنا المعمدان — ان كلمة يوحنا يونانية الأصل ومعناها نعمة الله ولما ظهر يوحنا هذا صار يعمد الناس فى نهر الأردن فأرسل اليه اليهود وفدا ليعرفوا من هو فبشرهم بمجىء المسيح

(راجع انجيل متى الاصحاح الثالث - وانجيل مرقس الاصحاح الأول — وانجيل لوقا الاصحاح الأول والاصحاح الثالث ، وانجيل يوحنا الاصحاح الأول .)

ويقال ان يوحنا هذا هو يحيى بن زكريا الذى ذكرت قصته فى القرآن الكريم تفصيلا فى سورة آل عمران وسورة مريم . (تفسير الالوسى حـ ٣ . ص ١٤ - الوحى المحمدى للسيد محمد رشيد رضا . وص ٣٦٩ من كتاب قصص الأنبياء للاستاذ عند الوهاب النجار)

العين منه وهو فى العبرية بمعنى (غاص أو غطس) اشارة إلى التعميد الذى يقوم به أولئك الذين يدينون بمذهب يوحنا المعمدان فى النصرانية .

أما الصابئة الذين لا يعرفون هذه الطقوس فمن الجائز أنهم اختاروا هذا اللقب « لقب الصابئة » ليتحصنوا فيه وليتمتعوا بما أباحه القرآن لهذه الطائفة من التسامح والتجاوز معهم كما يعامل اليهود والنصارى» انتهى كلام الدائرة .

ثم أخذت تتحدث عن الطائفة الثانية وهى الصابئة الحرانية ناقلة ما قاله الشهرستانى فى الملل والنحل وشبيه بقول الدائرة ما ذكره (رودويل)

ونحن نرى هذا الرأى ونرجحه وهو أن الصابئة فرقتان فرقة ذكرها القرآن وهذه مذهبها خليط من اليهودية والنصرانية حين ظهور الاسلام . وموطنها البطائح وهى أراض واسعة بين واسط والبصرة (ص ٢٠٥ إخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطى)

والفرقة الثانية من تسمت بالصابئة ومركزها حرّان ، وهذه الأصل فى مذهبها عبادة الكواكب وتقديس النجوم تقديس الآلهة ، وقد يكون هؤلاء لهم صلة بمن جادلهم الخليل ابراهيم عليه السلام وقص القرآن مجادلته فى سورة الأنعام وسورة الأنبياء . ونحن لا نريد التوسع فى شرح دين هذه الفرقة الثانية لأنها لا يقصدها القرآن وخير كتاب فى ذلك هو رسالة الصابئة للسيد عبد الرزاق الحسنى .

أما دليلنا على أن هذا الرأى هو الراجح فهو :

اولا — أن بعض اللغويين ذكر أنهم أهل كتاب

ثانيا — أن بعض المفسرين كالقرطبى والرازى ذكر انهم قوم يشبه دينهم دين النصارى

ثالثا — ورد فى ص (٢٠٤) من كتاب إخبار العلماء للقفطى « أن

أبا حنيفة سئل عن الصابئين الحرانيين وهم معروفون بعبادة الكواكب فأجراهم مجرى عبدة الأوثان فى تحريم المناكحة والذباحة وصاحباه سئلا عن الصابئين السكان بالبطيحة وهم فرقة من النصارى يؤمنون بالمسيح عليه السلام فأجابا بجواز ذبائحهم ومناكحتهم . ولو سئل أبو حنيفة عن هؤلاء لأفتى بفتوى صاحبيه . ولو سئل صاحباه عن الفرقة الأولى لأفتيا بمثل قوله »

رابعاً — ذكر الماوردى فى ص (١٢٨) من كتابه الأحكام السلطانية « ان أبا حنيفة قال بأخذ الجزية من الصابئين والسامرة إذا وافقوا اليهود والنصارى فى أصل معتقدهم ، وان خالفوهم فى فروعه » .

وجاء أيضاً فى ص (١٤٥) من كتاب الخراج لأبى يوسف « ان الجزية واجبة على أهل الذمة ممن فى السواد وغيرهم من أهل الحيرة وسائر البلدان من اليهود والنصارى والمجوس والصابئة »

خامساً — ان هؤلاء الصابئين الذين ذكرهم القرآن مقترنين بأهل الكتاب من اليهود والنصارى والمجوس . والذين ذكرهم أيضا أبو يوسف فى قوله السابق لو كانوا عبدة أوثان أو كواكب لما رضى الامام أبو حنيفة وصاحبه منهم بالجزية . اذ لا نعلم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أحدا من الخلفاء من بعده أخذوا من عبدة الاوثان من العرب جزية

سادساً — ان الصابئة الحاليين لا يزالون يقدسون يوم الأحد كالنصارى ويعطلون فيه أعمالهم . وان عادة التعميد لا تزال عندهم قائمة .

وقبل أن نختم الكلام على الصابئة نريد أن ننبه الأذهان الى أن لقب الصابئة الذى يلقب به كثير من الكتاب والحكماء والشعراء هو نسب الى الصابئة الحرانية . كما فى لقب أبى اسحق الصابى صاحب الرسائل ، وثابت بن ابراهيم الصابى وهو عم أبى اسحق كان طبيبا حاذقا ببغداد ، وهرون بن صاعد بن هرون الصابى الطبيب وغير هؤلاء ممن ذكرهم القفطى . ومن أراد الاستفاضة فى بحث هذه الطائفة فعليه بدائرة المعارف للأديان والاخلاق